فقه الترجمة؟

عبد الرزاق بنور

جامعة تونس – تونس –

a.bannour@hotmail.fr

لا شيء يستطيع أن يشي بعلاقتنا النفسيّة باللغة وبمكانتها الاجتماعيّة أفضل ممّا تفعله الترجمة... لذلك لا غرابة إن اتّسم تناول ترجمة النّصوص الأدبيّة العربيّة عامّة والمقدّسة خاصّة ببعض التشنّج والتشكيك والاستنكار... بل إنّ فضح علاقتنا بالعاميّات يظهر بوضوح أشدّ عند مجرّد التفكير بترجمة القرآن إلى ما تسمّى اللّهجات... وإن كانت بعض الدراسات التّي تناولت ترجمة النّصوص المقدّسة تقسم اللغات إلى صنفين لغة مقدّسة ولغة مدنَّسة، أي لغة النصوص المقدّسة التّي تصبح بموجب الاضطلاع بالترجمة مقدَّسة من ناحية ولغة سائر النصوص الأخرى، فإنّ للعالم العربي خصوصيّة تجعله يحتكم إلى ثلاثيّة: **لغة مقدَّسة – لغة مدنَّسة – لغة مدنِّسة**؛ فيميّز بين لغة مقدَّسة، العربيّة لغة القرآن، ولغة مدنَّسة، عادة ما تكون لغة أجنبيّة فارسيّة أو فرنسيّة أو حتّى عبريّة يترجم إليها القرآن، ولغة مدنِّسة يحرّم اقترابها من القرآن تحريما ويجرَّم كلّ من يحاول ترجمته إليها.

كلّ هذا يفترض شحنة من الأدلجة لا يمكن إنكارها رغم ضرورة تقريب النصّ في محتواه إلى أكبر عدد ممكن من المسلمين. لكن، وإن كان الإنسان ميالا بطبعه إلى تقريب ما لا يعرفه ممّا يعرفه (انظر التبريرات الشعبيّة [folk etymology]، مثلا، من قبيل "الفاطق النّاطق" أو "ضيع البوسطة" أو "النافوخ" أو "نحاسب الله ونعمل وكيل") فلماذا لا يترجم القرآن إلى العاميات

المنارة للاستشارات

بعد أن رسخت فكرة المعجزة اللغويّة؟ هل هو خوف على العربيّة من اللهجات؟ ألا يشي هذا التخوّف المرضي بأنّ تقديس اللغة أدّى إلى تكليسها ككلّ لغة مقدَّسة ومن ثمَّ إلى إضعافها! ؟

ما معنى "**لغة مقدَّسة؟**" تعتبر لغة مّا لغة مقدّسة إذا نزل فيها أو كتب بها نصّ يعتبره المتقبّل مقدّسا، أو تلك التي لا تستعمل إلاّ في الطقوس الدينيّة دون غيرها، [القبطيّة في مقابل العاميّة المصريّة، مثلا]. أو تلك التّي لا يمكن الفصل فيها بين الشكل والمحتوى، بين الحرف والمعنى [العربيّة مقابل اللهجات...] نرى هنا كيف إنّ العربيّة تفي بكلّ شروط اللغة المقدّسة أو هي كذلك مهما كانت وجهة النّظر المعتبرة.

أن يعتبر النصّ نصّا مقدّسا يعني أنّه لا سبيل إلى المساس به في مستوييه: اللفظي والمعنوي. ولّما كان المستوى اللفظي يتجلى بدوره بطريقتين المسموع والمرئي، المقروء والمكتوب نكون إزاء مقدَّسين: مقدَّس اللغة ومقدَّس الكتابة. من الطبيعي عندها أن تقدَّس العربيّة التّي نزل بها القرآن، حتّى وإن كانت في الأصل لهجة قريش، فتحاط بهالة قدسيّة عرفتها كلّ اللغات التّي حملت خطابا مقدّسا دون اعتبار الزمان والمكان لتصبح اللغة الأم، لغة آدم ولغة الجنّة، واللغة المثاليّة التّي لا تضاهيها لغة نزلت مكتملة الشكل والوظيفة لذلك لا يمكن أن تتطوّر إلاّ نحو الفساد .فإذا كانت اللهجات تمثّل مرحلة من مراحل تطوّرها فهي فاسدة على هذا الأساس.

لكن، من المعروف أنّ ما لا يتطوّر يتكلّس ليذبل ثمّ يموت... فما نعتقد أنّه يحمي من الفساد هو الذي يقتل في اللغة كلّ غصن أخضر [أن تكون اللغة مقدَّسة في أحد معاني "لغة مقدّسة" يعني أن تختص بالحديث في الدين

المنارة للاستشارات

دون غيرها] فعدم التطور يعني القطيعة مع تطور المجتمع ومشاغل النّاس اليوميّة. واللغة التّي لا تستعمل في الخطاب اليومي تسمّى لغة ميّتة أو شبه ميتة حتّى لو كانت اللغة "الراقية"، لغة العلم أو الدين. وفي المستوى الثاني، أي المستوى المرئي، من الطبيعي أن تقدّس كذلك الكتابة العربيّة. فالنّاظر في تطور الكتابات اللاتينيّة يلاحظ الفرق بين الكتابة الخطيّة اليدويّة والكتابة المطبعيّة المنمّطة [قارن كيف أصبحت "*p b d q*" منمطة في "bdpq"]، بينما لا يكاد يوجد فرق يذكر بين الخطّي اليدوي في العربيّة والآلي المطبعيّ الذي بقي على حاله غير المنمّط –إذ أنّ الحرف الطباعي العربي حافظ على خاصيات الخط اليدوي من تفاوت في الأوزان والأحجام– ولا يف تمسّك العرب بشكل الكتابة الحالي الذي يطرح مشاكل جمّة في التعامل مع تنسيقه بالبرمجيات الحديثة إلاّ هذا القداسة المرتبطة بتدوين التنزيل.

إذن لا يمكن مبدئيّا المساس بما يعتبر مقدَّسا !وإن كان لا بدّ من ذلك فلا سبيل إليه إلاّ بالمحافظة على شكله .وهذه مفارقة غريبة !فكيف يمكن نقل محتواه الذي يكمن جزء كبير منه في شكله بلغة أخرى دون تغيير شكله؟ هذه في الحقيقة مفارقة ترجمة كلّ النصوص الكثيفة أصلا !فإذا كان المطلوب هو إنجاز عمل يغنيك عن الأصل أو يخفف من حاجتك إليه، كان لا بدّ من الوفاء بكلّ مستويات الأصل. وكلّما كان الأصل مقدّسا كان الميل واضحا إلى تحميله بكثافة خارقة حتّى إن لم تكن فيه وبالتالي كان التعلّق بالأصل أشد.

لكن، إذا كان لا بدّ من الأصل، كان لا معنى للترجمة. وإذا كان لا سبيل إلى الأصل كان لا بدّ من الترجمة، وبالتالي، لا بدّ بالقبول بعمليّة الاستبدال، مع ما فيها من الحيف بقيمة الأصل ومن رفض مبدئيّ لعمليّة

المنارة للاستشارات

الاستبدال. لذلك كانت عمليّة الترجمة بمثابة من باع ظلّه للشيطان، يبدو لا معنى له في حضور الأصل، بينما هو مقياس يضبط تسليط الأضواء عليه ويطالبه به الشيطان كلّما خرج من دائرة النور.

هكذا إذن، يفضي تقديس القرآن أو أي نصّ آخر إلى قتل كلّ محاولة لترجمته باعتباره نصّا دون ما يحيط به من سياق ثقافي وظروف قول. لذلك لا غرابة إن كانت كلّ النّصوص المقدّسة محاطة بهالة من النّصوص الحواشي تمنع الوصول المباشر إلى لبّ النّص وتضع نفسها شرطا لفهمه. فتقيم بذلك حواجز خارقة تتمثّل في الغالب في افتراض معاني مخفيّة، تحتيّة، غامضة لا يفقه كنهها غير المطلعين. و بالتالي لا يترجم النصّ المقدَّس من يشاء...

ويجعل انصهار الشكل والمحتوى من الصعب معالجة الكلمات باعتبارها دوالّ ليس لها من وظيفة سوى تبليغ على مدلولاتها، بل هي مدلولات في ذاتها كما هي مؤشرات على مدلولات .لذلك يفترض أن يقع اعتبار اللفظ في المقام الأوّل قبل المعنى، بل إنّ اللجوء إلى الغوص في أصول الألفاظ والبحث عن أقاصي اشتقاقاتها يكون من المحبّذ جدّا عندما لا يكون من الشروط المنهجيّة لفكّ رموز كلام قدسي ليس في متناول أي بشر. نفهم بذلك التمسّك بشكل النصّ الأصلي دون الاكتفاء بالمعنى كما يفترض في النصوص الشفافة. وعندها نفهم لماذا تعدّ ترجمة القرآن إلى العاميات من الكبائر، إذ لغياب الحيز الذي يفصل الشكل بين الفصحى والعاميّة فأنّ المعنى وحده هو الذي سيبقى دون اللفظ. فيعتبر ذلك إخلال بقدسيّة النصّ وحطّ من اعتباره نظرا للدور المبتذل الذي تلعبه العاميات في الحياة اليوميّة. وبما أنّ لهجة من اللهجات لا ترتقي إلى مصافّ اللغات إلاّ إذا أبدعت أثرا عظيما (لم

المنارة للاستشارات

تصبح لهجة التوسكان الأتروريّة اللغة الرسميّة لإيطاليا –التّي تستعمل فيها ما لا يقلّ عن 17 لهجة– إلاّ بعد أن كتبت بها "**الكوميديا الإلهيّة**" لدانتي وكذلك لهجة قريش التي أصبحت لغة سائر الجزيرة العربيّة بعد أن نزل بها القرآن، الخ. ويمكن أن يكون الأثر العظيم كميّة الآثار الأدبيّة وقيمتها –كما كانت الفرنسيّة في القرن التاسع عشر– أو العلم المصدّر –كما هو الحال بالنسبة إلى الأنغليزيّة، في الوقت الراهن–، الخ). فإنّ النصّ الذي يصطبغ بالقدّسيّة يخلق سلميّة يرتقي باللغة الحاملة إلى درجة أعلى من تلك التّي لم تعرف هذا الشرف. لذلك ستزاحم العاميات العربيّة الفصحى يوم تصبح لغة إبداع لآثار تضاهي القرآن قيمة. ولا أظنّ ذلك اليوم سيأتي... مع أنّ من الآثار الجانبية لتقديس اللغة تكلّسها الذي يدخلها في دورة الجمود والتقوقع على نفسها والخوف من كلّ تلاقح حيوي يعيد إليها ديناميكيّتها باعتبارها مؤسسة اجتماعيّة، كما سبق أن قلنا.

وكلّما أوغل النصّ في التقديس (و لم نقل القدسيّة، لأنّ من النصوص الأدبيّة أو الفلسفيّة أو العلميّة ما يقدّس دون أن تكون لها علاقة بالدين) أخذ الانبهار فيها مكان الفهم وأصبح معيار جمالها لا يتعلّق بالمعلومة التّي توصلها بقدر ما يتعلّق بغموض الشكل وبتعظيم الألفاظ. ويتخلى الباث عن ضرورة إيصال معلومة شفافة ليعتّم قدر المستطاع فراغا يرطن وألفاظا وتراكيب يزيد الإعجاب بها بقدر ما يقلّ فهمها وتنال القبول والاستحسان كلّما اشتدت ثخانتها، فيحتفى بها على أنّها صرح من صروح الأدب أو الفلسفة، دون أن تقدّم جديدا غير إشباع رغبة نفسيّة متعطشة إلى الأحجيات المبهمة.

المنارة للاستشارات

أن تكون لغة مقدّسة يعني أنّها بلغت أوج الكمال والجمال ولا تستطيع لغة أخرى أن تضاهيها قيمة أو أن تع ع يمكنها أن تع عنه. (نسمع هنا صدى للجاحظ وغيره:! وحتَّى يعرف أبنيةَ الكلام، وعاداتِ القوم، وأسبابَ تفاهمِهم، والذي ذكرنا قليلٌ من كثير، ومتى لم يعرفْ ذلك المترجم أخطأَ في تأويل كلامِ الدين، والخطأُ في الدين أضرُّ من الخطأَ في الرياضة والصناعة، والفلسفةِ والكَيْمِياء، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم"[1]). هذا يعني أنّ الحرف (أي الشكل) مرتبط بالروح (أي المعنى) ارتباطا يجعل كلّ تفريق بينهما يخلّ بكليهما. فمن يرى أنّ الترجمة ممكنة وأنّ المحتوى كوني، يعتقد أنه بالإمكان الفصل بين اللفظ والمعنى. لكن، تكمن خاصيّة النصّ المقدّس في أنّ اللفظ والمعنى مرتبطان في عروة لا تنفصم، مثل الوجه والقفا. لهذا كان كلّ حديث عن إمكانيّة الترجمة يفترض إقناع المتقبّل بأنّنا مع اللفظ والمعنى إزاء شيئين منفصلين. [فنحن نفصل دون إشكال اللفظ عن المعنى في النصوص غير المقدّسة ولكنّنا لا نعتبر ذلك ممكنا مع النصوص المقدّسة الكثيفة بفعل قداستها]. وإذا لم يوف بهذا الشرط استحالت الترجمة، لأنّ ما كتب بتلك اللغة لا يمكن نقله إلى لغة أخرى بما أنها تقع في أعلى درجات السلميّة. ويعني كذلك أنّ هذه اللغة لا يمكن أن تتطور (بما أنها كاملة) إلاّ نحو الانحطاط لذلك وجب صونها. وهو ما يف تخوّف العرب من كلّ ما من شأنه أن يطوّرها لذلك أنكروا أن يكون لها امتداد في العاميات مثلا، فأصبح مجرّد القول إنّ العاميّات عربيّة ضرب من الهذيان. [لا تعتبر العاميّة عربيّة رثّة مثلا أو فقيرة أو ضعيفة، بل ينكر عنها صفة اللغة أصلا، فيزعم أنّ لا نحو لها ويزعم بالتالي إنّها

المنارة للاستشارات

ليست عربيّة بما أنها لا ترتقي إلى مستوى اللغة] إذ ليس من العربية إلاّ الفصحى!

كثيرا ما تُستعمل حجّةُ النصّ المقدّس عند المسيحيين الذين تقبلوا نصّهم عن طريق الترجمة ولا يرون ضيرا في ذلك، مع أنّ اللغات التي ترجمته اصطبغت بقدسيّة النصوص لقرون طويلة، حتّى تُهيّئ العقول لقبول ترجمة القرآن. ولكن الإسلام، بصرف النّظر عن المعجزة اللغويّة المرتبطة بأصالة القرآن باعتباره نصّا مقدّسا، لا يقبل الوساطة، خلافا للمسيحيّة التّي تجعل الراهب وسيطا بين الربّ والإنسان ويمكنها بالتالي أن تجعل لغة أخرى وسيطا تترجم اللغة الإلهيّة التّي نزل بها الوحي.

وتطرح قضيّة لغة الوحي إشكالا حقيقيّا بصرف النّظر عن الترجمة. فإذا كان النصّ المقدّس يصل الإنسان في لغة يفهمها هل يفترض أن تكون تلك هي لغة الإله كما في الديانة الهندوسيّة حيث إنّهم يعتبرون البراهميّة لغة الإله "براهما "؟ هل هي بالأحرى مترجمة إلى لغة دنيويّة بشريّة ولذلك كانت الحاجة دوما إلى آليات لتأويلها؟ وإذا كانت كذلك، فهي لغة بشريّة وتزول عندها المفارقة، وإذا لم تعتبر كذلك أليس هذا نوع من التقوّل والاعتقاد المبالغ فيه الذي لا يبعد كثيرا عن الكفر؟

المنارة للاستشارات

هوامش:

1 ــ الجاحظ، كتاب الحيوان، الجزء الأوّل، صفحات 78- 79.

بيبليوغرافيا:

بنّور (عبد الرزاق)، "الحرام بين الدين والجسد: مقاربة لغويّة "، سيصدر ضمن فعاليات ندوة "الدين والجسد" المنعقدة بالقيروان، أفريل 2010.

بنّور (عبد الرزاق)، "إبستمولوجيا الترجميّة"، سيصدر ضمن فعاليات ندوة تونس الدوليّة في الترجمة التّي نظمها المركز الوطني للترجمة، سنة 2008.

بنّور (عبد الرزاق)، "المحظورات اللغويّة والتلطيف"، (بالفرنسيّة)، ضمن فعاليات الملتقى الدوليّ في "المقدّس والمدنّس" الحمامات، سنة 2004.

BERMAN (Antoine), «De la translation à la traduction», TTR, vol. 1, n°1, 1988, pp. 23-40.

BENJAMIN (Walter), Mythe et violence. [Traduit par Maurice de Gandillac]. Paris, Denoël. 1971.

BERMAN (Antoine), L'Épreuve de l'Étranger. Culture et traduction dans l'Allemagne romantique. Paris, Gallimard. 1984.

NIDA (Eugene), Message and Mission (The communication of the Christian Faith). New York, Harpers. 1960.

STEINER (George), Après Babel. Trad. Lucienne Lotringer. Paris, Albin-Michel. 1978.

LADMIRAL (Jean-René), «Pour une théologie de la traduction», in TTR, Traduction, terminologie, rédaction, vol. 3 n°2, 1990, pp.121-138.

NOUSS (Alexis), Présentation «Traduire le sacré, sacraliser le traduire», in TTR, Traduction, terminologie, rédaction, vol. 3 n°2, 1990, pp. 7-13.

GARNET (Paul), «The Concept of a sacred language: help or hindrance in New Testament translation? », in TTR, Traduction, terminologie, rédaction, vol. 3 n°2, 1990, pp. 71-79.

المنارة للاستشارات

NOUSS (Alexis): «Babel: avant, après», in TTR, Traduction, terminologie, rédaction, vol. 3 n°2, 1990, pp. 53-70.
KAUFMANN (Francine): «Un exemple d'approche théologique de la traduction: les jugements sur la Septante», in TTR, Traduction, terminologie, rédaction, vol. 3 n°2, 1990, pp. 33-51.
SIMON (Sherry): La traduction biblique: Modèle des Modèles?», in TTR, Traduction, terminologie, rédaction, vol. 3 n°2, 1990, pp. 111-120.
MARGOT (Jean-Claude), «Langues sacrées et méthode de traduction», in TTR, Traduction, terminologie, rédaction, vol. 3 n°2, 1990, pp. 15-31.

المنارة للاستشارات